توطئة

يعيش الكثير من الناس في رهبة من العلم لمجرد اعترافه بمحدودياته وعدم قدرته على تقديم الجواب النهائي والحاسم لكل سؤال. يصر العلماء على عدم التوقف عن طرح الأسئلة وعدم إقفال باب البحث والاستكشاف، لكن دون الادعاء أو التظاهر بالوصول إلى الحقيقة المطلقة. المطلق بالنسبة لهم حاضر في البال بعيد عن المنال. الوصول إلى المطلق أمر يتنافى مع الروح العلمية المتمثلة في عدم التوقف عن طرح الأسئلة والبحث لها عن أجوبة، وعدم إغلاق أبواب الاجتهاد والتحليل والتفسير. سوف يستمر العقل البشري في الصعود إلى قمم أعلى من الوعي والإدراك، لكنه كلما سما إلى ذروة من هذه الذُّرَى المعرفية كلما انداحت أمام بصيرته آفاقا أبعد وأوسع وأعمق من أراضي المعرفة البكر التي تحتاج لمن يرتاد مجاهلها الشاسعة، والموحشة أحيانا. الأجوبة التي يقدمها العلم لتساؤلات البشر تحمل في طياتها أسئلة أصعب وأكثر تعقيدا.

الحل الذي يقدمه العلم لمعضلة الوجود ليس الوعد بالانتقال إلى عالم آخر له قوانينه المغايرة لقوانين الطبيعة والحياة الدنيا. ما يقدمه العلم هو التفاؤل بمستقبل أفضل من خلال محاولة فهم أعمق لهذا الوجود وتسخير قوانين الطبيعة لخدمة أغراض الإنسان وحل مشاكله في الحياة. حينما يقدم العلم فرضية عن نشأة الكون أو عن العناصر التي تتركب منها مادته أو عن مكونات الذرة أو الخلية فإن ما يدفع الناس لتقبل هذه الفرضيات ليس لأنها فُرضت عليهم، ولا حتى لما تتمتع به من قوة حجة ومنطق. ما يعزز مصداقية العلم هو ما يترتب على نظرياته من آثار ملموسة ونتائج تقنية تغير أسلوب حياة كل فرد وتُشكّل العالم من حولنا بحيث يستحيل تجاهلها أو العيش بمنأىً عنها.

العلم هدف في حد ذاته والفكر له قوة دفع ذاتية يستحيل صدها أو الوقوف في طريقها. كم من العلماء صقلتهم المصاقل وشنقتهم الكنائس في أوروبا العصور الوسطى لأنهم لم يستطيعوا التوقف عن التفكير ومقاومة الرغبة الجامحة في المعرفة والبحث عن الحقيقة والجهر بها. المبدأ الذي تقوم عليه فلسفة العلم هو أن كل شيء في الوجود قابل للبحث والتنقيب. العالِم يهمه معرفة الحقيقة بكل موضوعية وتجرد ولا ينكشف له ناموس من نواميس الطبيعة أو سر من أسرار هذا الكون إلا ويسعى لكشف سر آخر، لأن حب الاستطلاع غريزة جُبل عليها الإنسان ليعمر بها الكون.

كلما ترسخت قناعة الإنسان بفاعلية المنهج العلمي وقدرات العقل البشري كلما تضاعفت قدراته ليس فقط على تسخير الطبيعة والسيطرة عليها، بل أيضا في القدرة على التعامل مع المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل فعال وناجع. ولذلك نجد الأمم تكيّف مناهجها التعليمية لغرس المفاهيم العلمية الصحيحة في أذهان الطلاب مما يمنح عقولهم اللياقة الذهنية ويدربهم على التفكير السببي وعلى خطوات المنهج العلمي في البحث والكتابة والتفكير وفي

التعامل بواقعية وموضوعية مع ما يواجهونه من مشاكل الحياة، بعيدا عن الركون إلى الغيبيات والمعجزات التي عادة ما تقود إلى ضبابية التفكير واختلاط المفاهيم وتشويش الأذهان والاستسلام لمجريات القضاء والقدر.

في ظل غياب العلم وبدائية التكنولوجيا يصبح الإنسان قليل الحيلة. مجتمع كهذا لا تمكّنه ثقافته المادية ولا إمكانياته التقنية من إحكام سيطرته على الطبيعة. لا يملك الإنسان في حالته البدائية إلا أن يستسلم للقضاء والقدر، إذ لا يملك المعارف ولا الأدوات الضرورية وليس بوسعه أن يعمل شيئا أو أن يغير في مجريات الأمور أو سير الأحداث، أو حتى فهمها وتفسيرها والتعامل معها بشكل سليم. تصبح عيشة الإنسان في مثل هذه الظروف مجرد محاولات لا تنقطع لإدارة أزمات متلاحقة من أجل تقليص الخسائر وتخفيف الأضرار، وكل ما يطمح إليه هو الحد الأدنى الذي يمكّنه من البقاء على قيد الحياة. لم يكن للأسلاف إلا أن تتشكل ذهنيتهم على هذه الشاكلة ويتلوّن تفكيرهم وفق هذه النظرة السلبية الاستسلامية، فلم يكن لهم مفر من ذلك في ظل ضحالة ثقافتهم المادية وبدائية التكنولوجيا وغياب العلم والمعرفة.

النظرة البدائية الماقبلعلمية للعالم تقوم على التفسيرات الأسطورية لنشأة الكون وعلى أساس أن الأرض وغيرها من الكواكب والأجرام السماوية أشياء ثابتة لا تتحرك ولا يقوم بينها أي علاقة أو نظام. هذه النظرة السكونية انعكست على مفهوم الزمن فثبتته وألغت فكرة التغير والتطور وألغت حركة التاريخ. التفسير الأسطوري لنشأة الكون يقود بالضرورة إلى ما يمكن أن نسميه النظرة الارتجاعية في تفسير التاريخ بحيث يصبح كل زمن أفضل من الزمن الذي يليه. هذه النظرة تضفي على القديم شيئا من القدسية والرهبة يصعب الانفلات منهما وتقود إلى الاعتقاد بأن الجنس البشري، وكل شيء آخر في هذه الدنيا، يسير في طريق الانحلال والضعف والشيخوخة والانحطاط، ماديا ومعنويا، بدنيا وعقليا وخُلقيا، وكذلك عمرانيا. إن أي تغيير يطرأ على أي شيء في هذا الكون هو حتما تغير إلى الأسوأ، إلى الفساد. النظرة الارتجاعية تشكل الوعي وفق أطر الماضي لا المستقبل وتجعل من الماضي نموذجا يحتذى ويعاد إنتاجه لا حقبة تاريخية في مسار البشرية الصاعد يمكن إخضاعها للبحث العلمي والتحليل النقدي. يصبح التاريخ البشري وفق هذه النظرة مجرد حوليات، أحداثا عابرة لا يربطها رابط ووقائع متناثرة لا ينتظمها نسق، وتسير بانحدار نحو هاوية محتومة.

بعدما أطلق الإنسان لعقله العنان وأسلم نفسه للعلم استطاع أن يحلق إلى أعلى مستويات التجريد ويحيل مادة الكون وحركة الكواكب والأفلاك وجميع مظاهر الطبيعة إلى صيغ رياضية ومعادلات حسابية أحالت ماء البحر ليس إلى طحين، كما تقول الأغنية، وإنما إلى HO_2. العلم جرش هذا العالم المادي الصلب وطحنه وسحنه وأحاله إلى هباء من الهيولي والذرات والخلايا الدقيقة. في القرن الفائت وطأت قدم الإنسان تلك الكواكب التي كان بالأمس يركع لها وينحر في مذابحها بناته الأبكار.

بعد اكتشاف الجاذبية وقوانين الحركة التي تسير هذا الكون بما فيه من شموس وكواكب بدأ الإنسان يتساءل عن نشأة الكون وعمره. ومع تقدم الأبحاث الفلكية والجيولوجية بدأ عمر الكرة

الأرضية يتراجع ويمتد ليقفز من مئات الآلاف إلى مئات الملايين من السنين. كما أنه بفضل الأبحاث الأركيولوجية والأنثروبولوجية قفز عمر الإنسان على الأرض من الآلاف إلى مئات الآلاف من السنين التي تزيد أو تنقص تبعا لطبيعة الأدلة التي نحتكم إليها. ومع اكتشاف المنظومة الشمسية والدورة الدموية ودورة المادة والأنساق البيئية بدأ يطغى مفهوم "النظام" على التفكير العلمي. وعرّف العلماء النظام بأنه بناء كلي يتألف من وحدات تقوم بينها علاقات وتفاعلات وتغذيات استرجاعية تمليها طبيعة البناء ومكوناته. وتدخل الأنظمة الصغيرة مع بعضها في تكوينات نظامية أكبر. والعلاقات الديناميكية القائمة بين وحدات النظام في حركة دؤوبة لا تستقر.

على هذا المنوال بدأت تتراكم الشواهد العلمية التي تشير إلى أن الحركة ليست عملية عشوائية ولا حدث فردي وإنما هو مفهوم عام يحكم الكون كله، وأن التغير ناموس من نواميس الطبيعة الذي يخضع لنظام يسيّره من البساطة إلى التعقيد ومن التشابه إلى التمايز. وعلى هذا الأساس قامت نظرية التطور التي تعد، بعد اكتشاف الجاذبية والنظام الشمسي، أعظم خطوة على مسيرة تقدم الفكر الإنساني.

الأحداث الطبيعية والاجتماعية مترابطة متدافعة مما يجعل من التغير ضرورة يحتمها عامل الزمن، الزمن كفيل بتغيير أي شيء وكل شيء. ولا يقتصر التغير على الأشياء الحسية فقط، بل يعتور حتى الأشياء المعنوية، بما في ذلك السلوك الإنساني والوعي الإنساني اللذان يتشكلان من خلال التفاعل والاندماج مع مختلف الرموز الثقافية والأنساق الاجتماعية. مع تقدم البحث العلمي تبين أن التطور قانون طبيعي وآلية قسرية لا يمكن الوقوف في وجهها. وبذلك تغيرت النظرة إلى الماضي والمستقبل وأصبح الناس يحاولون فهم التغير والتعامل معه تعاملا ديناميكيا وعقلانيا بعد أن كانوا يخشونه ويقفون ضده. الاكتشافات الحديثة في الفلك والجيولوجيا والأركيولوجيا أدت إلى تصحيح مسار التاريخ وتعديل اتجاهه من الخلف إلى الأمام، نحو التطور والتقدم. عندها تحولت النظرة إلى العالم من نظرة سكونية إلى نظرة ديناميكية حيوية لها القدرة على التكيف والتعامل مع التغير والتعددية.

بقدر ما ينطبق المنطق العلمي على العلوم الطبيعية فإنه ينطبق أيضا على العلوم الإنسانية والاجتماعية. سلوك الإنسان وجميع أنساقه الثقافية والاجتماعية تحكمها قوانين يمكن اكتشافها عن طريق البحث وطرح الأسئلة. فالسلوك الإنساني مهما بدا لنا عفويا وتلقائيا فإنه محكوم بقوانين بالغة الصرامة والتعقيد. لا يوجد فوضى في هذا الكون المنتظم، المعضلة تكمن دائما في كيفية استكشاف النظام الداخلي للظاهرة المدروسة والقواعد التي تسيرها. قد لا يكون الإنسان العادي على وَعْي بالقوانين التي تسيّر سلوكه وتحكم مختلف الأنساق الاجتماعية والنماذج الثقافية التي يخضع لَها. لكن عدم الوعي بالظاهرة لا يعني عدم وجودها. تقع على العالم المتخصص مهمة اكتشاف هذه الأنساق ومكوناتها والقوانين التي تحكمها ووصفها وصفا موضوعيا متجردا يمكّن من فهمها، دون اتخاذ موقف مسبق حيالها. سمة التجرد التي لا بد من توفرها في العالم تعني عدم وجود أي ارتباط شعوري أو مصلحي بين الدارس والموضوع. من الممكن للعالم المتجرد أن يبحث ويعمّق البحث في مسألة من المسائل دون أن يكون له حيالها أي موقف أو أن يترتب له منها

أي مصلحة. العلم مسائل تبحث عن حلول وليس مواقف وقضايا تبحث عن دعاة وأنصار. العالم ليس واعظا ولا داعية وليس إنسانا أيديولوجيا يؤمن إيمانا عقائديا وأخلاقيا بما يقول ويدعو إليه. الهدف الأول والأساس للعلم "التحليل" لا التحريم، الفهم لا التقويم.

لقد أدرك العالم بعد صراع طويل مع المطلق أن كل شيء مرهون بزمانه ومكانه وظروفه التاريخية والبيئية، وأن الأمور في نهاية المطاف كلها نسبية، من النسبية الرياضية التي نادى بها أينشتاين إلى النسبية الثقافية التي نادى بها الأنثروبولوجيون. التغير والاختلاف حقائق مكانية مثلما هي حقائق زمانية. لا يمكن لأي شيء أن يفلت من قبضة المكان والزمان، ومن ثم حتمية التغير والتحول. من المستحيل أن يكون الشيء هو الشيء نفسه من لحظة لأخرى أو من مكان لآخر. المكان لا يقل أثرا عن الزمان كعامل من أهم عوامل التغير التي تعتور الأشياء وكسبب من أهم الأسباب المؤدية إلى الاختلافات التي تميز المجتمعات البشرية وتمنح كل منها سمات التفرد والخصوصية.

الاختلافات والفوارق بين عناصر الثقافة من مجتمع لآخر أمر طبيعي يحتمه عامل الزمان والمكان، ضرورة تحتمها متطلبات التكيف مع البيئة والتأقلم مع المحيط والاستجابة للعوامل المؤثرة، معطيات التاريخ والجغرافيا. هناك خصائص مشتركة تميز الجنس البشري عن غيره من الكائنات. من أبسط الأمثلة على ذلك القدرة على الكلام والتصور والتفكير في الماضي والمستقبل واستخدام الأدوات. هذه الخصائص مرتبطة بحقائق بيولوجية مثل حجم المخ الكبير نسبيا وتركيبه المعقد وكذلك القامة المنتصبة والمشي على الرجلين وترك اليدين طليقتين لحمل الأدوات واستخدامها. وهناك من يقولون بوحدة نفسية توحد البشر، إلا أنه في ظل هذه الوحدة النفسية توجد تفرعات وفروق تميز الحضارات والمجتمعات عن بعضها البعض، بل الطبقات داخل المجتمع الواحد، خصوصا فيما يتعلق بالنظرة إلى الكون وتنظيم المعارف وتصنيف المدركات الحسية وتحديد العلاقات بينها. هذه الفروق جاءت نتيجة الاختلافات البيئية والاجتماعية وعلاقة الإنسان بالطبيعة والناس من حوله. ولقد صاغ علماء الاجتماع هذه المسألة وفق فرضية تقول بأن القاعدة التكنولوجية تتفاعل مع البيئة الطبيعية ومواردها لتشكل الأساس الذي يقوم عليه النسق الاقتصادي، والذي بدوره يحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية وما ينتج عن ذلك من أنساق وقيم ورموز ثقافية متمايزة، لتشكل في مجموعها بنية فوقية، أي هياكل أيديولوجية وعقائدية توجه الفكر والسلوك وتحدد مسارهما.

اختلاف الثقافات في تصنيف المدركات الحسية وإعطائها مفاهيم أو رموز دلالية مبحث من أهم مباحث الأنثروبولوجيا الإدراكية، كما أن علم اجتماع المعرفة يركز على الفروق الطبقية في طريقة التفكير داخل المجتمع الواحد. لقد أصبح من المسلم به أن الثقافة أو المجتمع أو الطبقة التي ينتمي إليها الفرد سوف تشكل فكره وتترك آثاراً واضحة على تركيبته الذهنية والنفسية. بعبارة أخرى، الإنسان، إلى حدٍّ ما، حبيس المعطيات الحضارية ورهين الظروف الاجتماعية التي تملي عليه طريقة تفكيره وسلوكه بدون وعي منه، الرموز الاجتماعية والحضارية لا تختلف عن الرموز اللغوية التي تحدد سلوك الإنسان وطريقته في التفكير والتي يؤدي اختلافها إلى تعثر الفهم. الواحد منا يحس بالارتياح لبني جلدته ويستطيع التفاهم معهم، ليس فقط لأنهم يتكلمون نفس

اللغة، وإنما أيضا لأنهم يشاركونه نفس المشاعر والأفكار، ويتعاملون معه بنفس الرموز والمفاهيم، ويتفقون معه في نظرتهم للحياة، لذا يستطيع كل منا أن يتنبأ بسلوك الآخر ويفهم المقاصد التي يرمي إليها. إلا أن الاختلاف بين الشعوب في هذه الأمور قد ينتج عنه سوء التفاهم وتعطيل قنوات الاتصال والصدمات الحضارية حينما ينتقل الشخص من ثقافة لأخرى، وذلك لأن كل منا يلبس منظار حضارته ويحكم على الآخرين بنفس القيم التي نشأ فيها والمفاهيم التي تعود عليها.

وبطبيعة الحال، فإن علماء الإنسان والفلاسفة يدركون هذه الإشكاليات التي تتجلى أكثر فأكثر مع تقدم الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية. لذا حاولوا جاهدين أن يتخطوا ما أمكن خصوصياتهم الحضارية ويتجاوزوها إلى الأحكام العامة التي لا يحدها الزمان ولا المكان. ومن هنا جاء المنهج العلمي كوسيلة تساعد الباحث على تخطي تمايزاته وتجاوز أنماط التفكير التي يفرضها عليه مجتمعه الخاص ليسمو إلى الموضوعية والعلمية. يلجأ العالم إلى توظيف أدوات المنهج العلمي ليحترز بذلك من الانطباعات الحسية والمشاعر الشخصية والنزعات الذاتية، ومن ترسبات القيم والتقاليد والأيديولوجيات التي قد تحول دونه ودون التوصل إلى الحقيقة المنشودة. المنهج العلمي بخطواته المعروفة هو الحل المنطقي للتأكد من أن النتائج التي يتوصل إليها الباحث أقرب إلى الحقائق العلمية منها إلى الرجم بالغيب. أثبت المنهج العلمي أن الإنسان قادر بفكره عن طريق البحث المنظم والتحليل المنطقي أن يستنبط الباطن من الظاهر ويصل إلى خفايا المجهول عن طريق المعلوم في كل الأمور، سواء الأمور الطبيعية، أو قضايا الإنسان والمجتمع. لذا نستطيع مثلا أن نعرف حركة بعض الأجرام السماوية ونعرف ما في باطن الأرض ونقدر عمرها ونتتبع تطور الحياة ونضع تصوراً لحياة ماقَبْل التاريخ عن طريق الشواهد الأثرية الشاخصة والدلائل الملموسة. وبقدر ما أوتي الإنسان من قدرة على التفكير وبقدر ما يحاول إعمال فكره وذكائه في البحث الموضوعي والاستكشاف سيكون مقدار المسافة التي يتجاوزها من الظاهر إلى الباطن، من السطح إلى القرار، من الوعي إلى اللاوعي، فهناك مستويات من الوعي ودرجات من الإدراك. والوعي الذي أتحدث عنه هو الإدراك والمعرفة والعلم بالشيء، هو التأمل في أقوال الناس وأعمالهم كمظاهر تساعدنا على سبر غور العقل البشري ونتغلغل إلى أعماق الطبيعة الإنسانية.

الحقائق التي يكتشفها العلم هي أشياء موجودة أصلا وليس العلم بها واستشعارها هو الذي يوجدها. العلم فقط ينبه إلى وجودها ويحاول تفسيرها واكتشاف القوانين التي تسيرها وتعطيها شكلها ومادتها. المتكلم يتكلم دون الوعي بالقوانين اللغوية التي تحكم كلامه والأديب يبدع دون أن يكون على علم بالقوانين التي تحكم إنتاجه، بل إن ارتداء الأزياء وآداب المائدة وطرق التحية، بل حتى الجلوس والمشي التي تبدو لنا أمورا تلقائية هي أنساق ثقافية محكومة بقوانين وقواعد بنيوية. هذا بطبيعة الحال لا يعني، كما قلنا، أن الإنسان على وعي بهذه القوانين وأن كل حركة يقوم بها محاولة واعية لتطبيق هذه القوانين والتقيد بها. الناس عموما، وفي كل مجالات الحياة، يتصرفون دون الوعي بالقوانين التي تحكم تصرفاتهم. عدم الوعي بهذه القوانين أو عدم اكتشافها لا يلغي وجودها. استنباط هذه القوانين مهمة تقع على عاتق الباحثين والمختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية. عالم الفلكلور هو الذي يبحث في أسلوب وبنية الخرافات والأساطير

والأحاجي، وعالم النفس هو الذي يبحث في وظيفتها النفسية، وعالم الأنثروبولوجيا هو الذي يبحث في وظيفتها الاجتماعية. تتعاضد كل هذه التخصصات بهدف استكشاف الحوافز والدوافع التي تسيّر سلوك البشر ومختلف النشاطات الذهنية والتركيبة النفسية التي يتميز بها البشر وفي القواعد والقوانين التي تحكم ظواهر المجتمع الإنساني.

المنهج العلمي في البحث الاجتماعي قائم أصلا على أساس أن السلوك الإنساني، أيا كان، تحكمه قوانين يمكن اكتشافها والتوصل إليها عن طريق البحث والاستقصاء. ينطبق على السلوك الإنساني ما ينطبق على الظواهر الطبيعية في جميع تجلياتها والتي تخضع كلها لما نسميه قوانين الطبيعة. وبقدر ما يكون السلوك مركبا ومعقدا بقدر ما يصعب استنباط القوانين التي تسيره. استظهار مكونات اللاوعي الإنساني وفهم الطبيعة البشرية عمليات غاية في الصعوبة والتعقيد تقوم على التحليل والتمحيص وعلى الرصد الواعي والملاحظة الدقيقة لكل حالات الظاهرة المدروسة وعلى توظيف خطوات منهجية ومقاييس علمية تضمن موضوعية البحث وسلامة النتائج.

فرضية المماثلة العضوية بين الجسم الاجتماعي والكائن العضوي فرضية قديمة تشبّه المجتمع بالكائن العضوي أو بالآلة أو المركبة التي تتألف من أجزاء ومكونات مترابطة تعمل مع بعضها البعض وفقا لقاعدة التناسق الوظيفي. مقدار حالة التوافق والاتساق بين مكونات البناء تحدد فاعلية النظام، إذ لو تعطّل منها جزء لتداعى النسق الكلي واختل عمل الآلة. ويتفرع عن هذه الفرضية فرضيتان أخريتان، أولاهما تقول بإن فهم الواقع الثقافي والاجتماعي على حقيقته ممكن من خلال التغلغل في صميم المجتمع والنفاذ إلى جميع مكوناته السوشيوثقافية. وتقول الفرضية الثانية إنه لا يمكن مثلا لجانب من جوانب الحياة الاجتماعية والمدنية أن يتقدم بينما يبقى جانب آخر يخدم ذلك الجانب المتقدم متخلفا لا يؤدي دوره بالشكل السليم. هنا تنتج حالة عدم التوافق بين متطلبات التحديث الاجتماعي والسياسي وبين القيم والعادات المتأصلة والمترسبة أحيانا في أماكن قصية من قاع اللاوعي والضمير الجمعي. هذه العادات والتقاليد المتأصلة عادة ما تصطبغ بصبغة أخلاقية أو تتخذ صيغة دينية تجعل التنازل عنها أمرا صعبا، لذا تقف حجر عثرة دون خطوات الصعود، مما يوسّع الهوة الثقافية في المجتمع الواحد ويرسخ الفجوة الحضارية بين الأمم.

****

حينما شرعت في تحرير هذا الكتاب ما كنت أتوقع أن يصل إلى هذا الحجم. ولكن إذا كانت تواريخ الأمم، بل سيرة حياة فرد واحد من البشر تصل إلى مئات الصفحات فما بالك بسيرة الجنس البشري عبر مئات الآلاف، بل ملايين السنين. ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأنه يستحيل الإحاطة بأي موضوع وقول كل ما يمكن أن يقال عنه بين دفتي كتاب واحد، مهما كان حجم الكتاب ومهما كانت محدودية الموضوع، فما بالك بموضوع واسع مثل الأنثروبولوجيا تتشابك أفنانه وتتشعب جذوره لتغترف من مناهل شتى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية على حد سواء. وقد يصعب مقارنة أي علم آخر بالأنثروبولوجيا من حيث شموليته واهتمامه بكل ما هو إنساني

وبالتالي ترابطه مع مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ليس فقط في القضايا التي يعالجها بل حتى في الأدوات المنهجية والأطر النظرية التي يتوسل بها لمعالجة هذه القضايا، من الفيزياء إلى الفسيولوجيا إلى الجيولوجيا إلى اللسانيات إلى علم النفس إلى علم الاجتماع إلى الاقتصاد إلى علم اليساسة إلى التاريخ إلى اللاهوت، وهلم جرا. ثم لا ننس أن الأفكار لا تولد وتتشكل في فراغ وإنما في أجواء فكرية ومناخات حاضنة تلد أفكارا وتجهض أخرى في نفس الوقت. والأفكار تشكل مع بعضها منظومة فكرية تميز عصرا من العصور، وتدخل مع بعضها ومع ما سبقها من أفكار تولدت هي عنها في سياق جدلي. تضاريس الفكر ليست مسطحة تستطيع صعود سلم قصير لتراها بمجملها تنداح أمام ناظريك. إنها قمم وأغوار وطرق متعرجة ومتاهات ولجج يحتاج الإبحار فيها إلى كل أنواع الأسطرلابات والبوصلات. المفكرون العظام من أمثال إميل دوركهايم وكارل مارْكْس وليفي شتراوس وغيرهم ممن مهّدوا سبلا جديدة على مسارات البحث العلمي وشكلوا بذلك قطيعة إبستومولوجية مع الماضي لا ننصفهم ولا نقدرهم حق قدرهم إذا اكتفينا فقط بانتزاع بعض المصطلحات الفضفاضة من أعمالهم وتلقفنا بعض العبارات الرنانة من كتاباتهم دون أن نتدبرها ونستوعب حقيقة معانيها ودون النظر إليها ضمن إطار نتاجهم الكلي الذي يشكل نسقا كليا متكاملا. كما يلزمنا أن نتعرف على ذلك الماضي الذي قدحت مقولاته أفكارهم وحفزتهم لنقضها لتقيم على أنقاضها فكرا جديدا ما زال مغموسا بتربة ذلك الماضي مثلما أن دم ديونيسوس مغموس بدماء التيتان. هذا يتطلب أحيانا تتبع جذور الفكرة خلال صيرورتها التاريخية من ناحية وكذلك ارتباطها بالأفكار المعاصرة لها والتي حفزتها أو جاءت هي كرد فعل لها. هذا يجعل من المستحيل ابتسار الفكرة واقتلاعها من جذورها، فلا بد للقارئ لكي يستوعب الفكرة ويتمثل أهميتها وارتباطها بغيرها من الأفكار السابقة لها واللاحقة أن يلم بخلفيتها والأرضية الفكرية التي أنبتتها ويحكم عليها من هذه المعطيات لا من معطيات العصر الحاضر. فالأفكار لا تموت كما تموت جذوع الأشجار بل تبقى حية مهما تجاوزها الزمن في قطار الأفكار الذي تتوالى عرباته بدون اتقطاع عبر الزمن. وسوف يلحظ من يقرأ هذا الكتاب قوة الوشائج التي تربط بين مختلف فروع المعرفة وأن الفصل فيما بينها وتصنيفها في تخصصات علمية ما هو إلا مجرد إجراء عملي ووسيلة افتراضية نلجأ لها مضطرين من أجل أن نسهل على المؤسسات التعليمية أداء مهمتها.

وهكذا فإن السؤال لا يتلخص في مدى صحة أو عدم صحة طروحات الماضي التي تجاوزها العلم الحديث وإنما ما هي الأشكالات التي كانت تحاول تلك الطروحات أن تتعامل معها وما هي الظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ولدت فيها واحتضنتها، ثم ما الذي حدث ليغير من ذلك كله وتُستبدل الطروح القديمة بطروح جديدة، أو بحسب مقولة توماس كُوْن Thomas S. Kuhn في كتابه **بنية الثورة العلمية** *The Structure of Scientific Revolution* ما الذي أدى إلى استبدال النموذج القديم paradigm بنموذج آخر. ما الذي أدى مثلا إلى أفول النموذج التطوري في العلوم الإنسانية واستبداله بالنموذج البنيوي! أو لماذا خضعت معالجة ظاهرة الطوطمية أو الأنساق القرابية لعدد من النماذج النظرية والمنهجية كل منها ينسف الذي قبله، كما

سنرى في فصول هذا الكتاب. مناهج التعليم ومؤسسات البحث وما يرتبط بها من مصالح ابتداء من تأليف الكتب المدرسية إلى تصميم الأجهزة المختبرية ناهيك عن العلماء الذين استثمروا سنين شبابهم في تشرب النموذج القديم لن يضحوا بمصالحهم ويستلسموا للنموذج الجديد، حسب توماس كون، إلا بعد فترة من المقاومة والتمنع. فالنموذج القديم لعب دورا مهما في جمع المعلومات وتصنيفها وتبويبها وتفسيرها ثم بنيت عليه مصالح أفراد ومؤسسات. ولكن علينا أن لا ننسى أنه بفضل ذلك النموذج نفسه وبفضل ما أدخله على النماذج السابقة ساهم بالرقي بمستوى الأدوات البحثية والغوص أكثر إلى أعماق الظواهر المدروسة. ولكن شيئا فشيئا تظهر الاستثناءات وتتراكم الشواذ التي لا يمكن التغاضي عنها ولا معالجتها من خلال النموذج القائم وتبذل محاولات جادة ما بين محاولة لي أعناق الحقائق لمواءمتها مع النموذج القائم أو إدخال بعض التعديلات الطفيفة والترقيعات على النموذج نفسه. لكن الشواذ والاستثناءات anomalies تتراكم لدرجة فاضحة يصعب التستر عليها ويظهر نموذج بديل يثبت نجاعته في حل المشاكل المستعصية فيتبناه من هم على مشارف دخول أبواب البحث العلمي من الجيل الجديد ليصبح هو النموذج السائد، وبذلك يحدث التحول paradigm shift الذي يغير قوانين اللعبة بكل مصطلحاتها ووسائلها المنهجية بما في ذلك المسائل المطروحة على بساط البحث والأطر المنهجية التي يتم من خلالها التعامل مع هذه المسائل وأساليب البرهنة والتثبت. وبذلك تبدأ دورة جديدة تتغير معها خارطة طريق البحث العلمي ويعاد طرح المسائل القديمة وفق المنظور الجديد لتُستَحْلب منها استنتاجات جديدة. وقد يكون النموذج الجديد تركيبي يتألف من عدة أفكار تتلاحم مع بعضها لتشكل نموذجا واحدا له طاقة تفسيرية أوسع من سابقه كما حدث حينما قام إسحاق نيوتن Isaac Newton بدمج قانون غالِيليو Galileo Galilei عن القصور الذاتي في الحركة مع فكرة يوهان كِبْلَر Johannes Kepler عن الدوران البيضاوي للأجرام السماوية ليخرج بقوانيه عن الحركة بشكل عام ويؤيد بذلك نظرية نيقولا كوبَرنيقُس Nicolaus Copernicus الذي كان قد رفض نموذج طولومي Ptolemy عن دوران الشمس حول الأرض ليقول إن الأرض هي التي تدور حول الشمس والتي كانت حتى ذلك الوقت مرفوضة في الأوساط العلمية. لكن هذه النماذج المستجدة من المستحيل التفكير فيها قبل أن يحين الوقت الملائم والأرضية اللازمة والأدوات الضرورية للبرهنة على صحتها ومن ثم تقبلها. ولذا فإنه من الخطأ أن ندعي أن الأوائل كانوا جهلة بقبولهم تلك الأفكار الخاطئة وأن المتأخرين أكثر منهم فطنة وذكاء. وهذه التحولات النموذجية لا تطال فرعا واحدا من فروع المعرفة بل تطالها كلها ويقتدي بها الجميع. بدأت النظرية التطورية عند علماء الأحياء ومنهم انتقلت إلى العلوم الإنسانية. كذلك النسبية والبنيوية وغيرها بدأت من الرياضيات والفيزياء ثم تبنتها بقية العلوم. وسوف يلاحظ القارئ في هذا الكتاب مدى اعتماد الأنثروبولوجيا بمختلف فروعها ليس فقط على غيرها من علوم الإنسان والاجتماع وإنما أيضا على العلوم الطبيعية، كما سيلاحظ مدى التحولات النموذجية التي طرأت على الفكر الأنثروبولوجي من عصر لآخر. لكن لا ينبغي لتباين الآراء وتبدل المواقف النظرية حيال العديد من القضايا التي يطرحها هذا العمل أن يثبط من عزيمة القارئ أو يشوش فكره ويدفعه إلى اليأس من إمكانية المعرفة، فلكل عصر نموذجه العلمي وأسئلته المستجدة

التي تبحث عن أجوبة وتتجدد بتجدد الظروف. وليكن في علمه أنه لولا النظريات التي عفى عليها الزمن واطّرَحْناها لما وصل العلم إلى ما وصل إليه الآن، فتلك هي الروافع التي أوصلتنا إلى هذه الذُرى المعرفية المعاصرة.

ما حدى بي إلى التوسع بحيث بلغ الكتاب هذا الحجم هو أن غالبية الأفكار التي يتناولها مبسوطة في مصادر أجنبية قد لا تكون متاحة لمعظم القراء العرب أو بلغات قد لا يتيسر للبعض منهم التعامل معها. هذا مع العلم أنني كنت شديد الحرص على أن لا أتوقف عند المراجع الأولية في اللغات الأجنبية بل بذلت ما وسعني الجهد في محاولة تنقّر المراجع العربية الرصينة والترجمات الموثوقة لإفساح المجال أمام القارئ للرجوع إليها لو أراد الاستزادة في أي من القضايا المطروحة بشيء من الاستفاضة والتوسع مما قد لا يجده هنا. هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ ما هو إلا خارطة طريق تلقي الضوء على تضاريس هذا العلم وعلى نقاط التماس بينه وبين العلوم الأخرى. بل إنني من أجل تحقيق هذه الغاية قد توسعت في الإحالات وأوردت في قائمة المراجع بعض المصادر الأساسية التي تمس القضايا المطروحة في هذا العمل حتى ولو لم أرجع لها مباشرة بالاقتباس أو التنصيص. فالكتاب قد لا يمكن القارئ من استيعاب مختلف القضايا المطروحة بجميع تفاصيلها لكنه قد يمكنه من الإمساك بأطراف الخيوط التي لو أراد أن يتتبعها فقد تفضي به إلى أن يُحكِم قبضته أكثر فأكثر على موضوع بعينه كلما توغل فيه وتتبع المصادر التي يقوده كل منها إلى مصادر أخرى تزيد من استيعابه وتمثله الشمولي الصحيح لذلك الموضوع. إضافة إلى أنني كنت حريصا على ربط جهدي بجهد من سبقوني من الزملاء العرب وسرد مؤلفاتهم اعترافا بفضلهم أولا وثانيا من أجل توثيق وشائج الصلة بين مختلف الإسهامات في نقل المعرفة في شتى المجالات إلى اللغة العربية وحرصا على تغذية ومراكمة هذا الرصيد الاستراتيجي المعرفي.

****

قصدت بهذه المقدمة الاعتذارية أن أستدر تعاطف القارئ وتفهمه للمصاعب الجمة التي يواجهها كاتب يحاول أن يعرض بشكل يسهل استيعابه وتتبعه أفكارا متشابكة رقابها تأخذ برقاب بعض وكل منها تفترض الأخريات وتؤسس عليها لكن في نفس الوقت يستحيل بسط هذه الأفكار ونظمها إلا كلمة كلمة على بُعد اللغة الخطي أُحادي الاتجاه. فالأفكار في الذهن ليست كالماء في الوعاء يمكنك أن تسكبها كلها في دفقة واحدة. فأنت لا تستطيع لا لفظ ولا سماع أكثر من صوت واحد في اللحظة. لذا يأتي الكلام متتابعا كلمة بعد الأخرى، على خلاف اللوحة مثلا التي يمكنك أن تلقي عليها نظرة شمولية تستوعب كل أبعادها الثلاثة بالتزامن. كيف يمكنك طرح الفكرة دون أن تقطّع أوصالها وتُبعثر أجزائها في مواقع مختلفة فتخرج مهلهلة يصعب الإلمام بها وتصورها كاملة على هيئتها القشتالطية المركبة التي من خلالها نتبين تكاملها وتماسكها! وتبرز هذه المشكلة بشكل حاد لدى الكتاب الذين يشفقون على قرائهم ويهمهم أن يوصلوا إليهم أفكارهم بأوضح السبل وأقصر الطرق دون إرهاقهم بالتكرار والترداد أو بالإحالات إلى أماكن أخرى في العمل أو الطلب منهم تعليق الفكرة في وضع ضبابي حتى يتم بسطها في مواقع لاحقة. معضلة الكتابة التي تستعرض موضوعا مركبا هو أن كل فكرة من أفكار الموضوع تشكل جزءا من كل مترابط من الأفكار البانورامية المتساندة مما يعني

صعوبة استيعاب أي من هذه الأفكار دون الإحاطة مسبقا بالموضوع ككل ودون أن يحكِم القارئ قبضته على العلاقات القائمة بين مكوناته المتداخلة التي يفترض كل منها الآخر ويستند عليه. فأي فكرة هي أساسا متفرعة عن فكرة أخرى وتلك الأخرى تنتمي إلى فكرة أعم منها، وهكذا بشكل هرمي تراتبي حتى يكتمل صرح الموضوع. كنت دائما أثناء الكتابة أحاول ما استطعت أن أضع نفسي مكان القارئ الذي يطّلع على الموضوع لأول مرة دون سابق صلة وأتساءل: كيف لي أن آخذ بيد هذا القارئ بصورة تدرجية متسلسلة ليلج إلى الموضوع ويُدلج فيه بدون رهبة وبدون أن يفقد بوصلة الفهم والاستيعاب ودون أن تتشتت به السبل ويتشتت ذهنه ويتيه في دهاليز النقاش المتعرجة وسبله المتقاطعة! وأتساءل كيف لي أن أنسج أفكار الموضوع بحيث أضع كل منها في المكان المناسب الذي يمكن القارئ من التقاطها واستيعابها بالشكل الصحيح الذي يُبرز علاقتها مع الأفكار الأخرى ومع هيكلية العمل ككل وبدون أن تستبق فكرة أخرى تُؤسس لها وتُمهد لعرضها ويُفترض أن يكون القارئ قد ألم بها قبل هذه التي تعتمد عليها! ولكن يبدو أنه مهما كان صدق النوايا وقوة العزيمة ومهما كان حجم الجهد المبذول لتحقيق هذه الغاية فإنه لا مندوحة عن هذا السبيل، وكل ما يمكن عمله هو إبقائه عند الحد الأدنى.

ولعل أصعب مشكلة يواجهها من يعملون في مجال نقل المعرفة من لغة إلى أخرى، خصوصا في مجال العلوم الإنسانية، هو أن الحواجز لا تتوقف عند اختلاف اللغات وإنما تتعدى ذلك إلى اختلاف الثقافات التي تعبر عنها ومن خلالها تلك اللغات مما يجعل مشكلة ترجمة المصطلحات ترجمة دقيقة وأنيقة وواضحة أمرا في غاية الصعوبة، بحكم ما تحمله المصطلحات أحيانا من ظلال المعاني والاستعارات والإيحاءات والإحالات السيميائية إلى سنن وعادات وأعراف وموروثات دينية وفكرية وثقافية وتاريخية ذات خصوصية حضارية. فنجد الأصول الدلالية للكثير من المصطلحات الغربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية متجذرة في تاريخ أوربا الحضاري والثقافي، بل وحتى في البيئة الطبيعية. فهم يستمدون ذخيرتهم من المصطلحات من بيئة الثلوج والغابات والبحار والأنهار ومن أساطير الإغريق وقوانين الرومان واللغات اللاتينية والإغريقية والجرمانية ومن الإنجيل والتوراة ومن عصور الإقطاع ولاهوت القرون الوسطى وفلسفات عصر التنوير وعصر النهضة والحركة اللوثرية. فليس من السهل دائما مواءمة ذلك مع لغة تضرب جذورها في الصحراء والجفاف والإبل وفي العصر الجاهلي وفي نصوص القرآن والحديث والصوفية وأهل الكلام وعلم الفرائض وفقه اللاهوت السني والشيعي. وما أحوجنا في عالمنا العربي إلى الدوريات العلمية الرصينة والجمعيات العلمية الجادة التي تعمل بانتظام وتعقد اجتماعات دورية لتبادل الخبرات ومراكمة المعرفة ومواكبة المستجدات في كل مجالات العلم الحديث. هذا سوف يساعد على سك المصطلحات الدقيقة المعبّرة في كل فروع العلم وتعميمها ليتفق عليها ويستعملها الجميع مما يسهل علينا التفاهم والتواصل فيما بيننا ويحد من اللجوء إلى المصطلحات الأجنبية ويسهل علينا أيضا نقل المعارف وترجمتها إلى العربية، بدلا من ترك الأمور تسير عشوائيا وفق اجتهادات وجهود فردية مبعثرة.

****

لم يبق لي ما أقوله إلا أن الأنثروبولوجيا هو علم الأمم المتحضرة، لكن موضوعه هو البحث عن البذور البدائية للحضارة البشرية وجذور التاريخ الإنساني والغوص إلى أعماق النفس البشرية

بحثا عن طبيعة مشتركة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والطبيعة. نظرة الأنثروبولوجيا للمجتمعات الأخرى، خصوصا البدائية منها، ليست نظرة إدانة وازدراء وإنما نظرة متفحصة ترى في مؤسسات المجتمعات البدائية الأصول الأولى التي انبثقت منها مؤسسات العالم المتحضر. هذه الرسالة التي يحملها الفكر الأنثروبولوجي هي التي أهلته لأن يحتل موقعا متميزا في عالم اليوم، فهو ليس مجرد تخصص أكاديمي أو فرع من فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية. الأنثروبولوجيا نقلة نوعية ساهمت في تشكيل الفكر المعاصر وتحديد مسيرته على الطريق الصحيح نحو فهم الطبيعة البشرية والتعايش الإنساني وتحرير العقل من العنجهيات المذهبية والعنصرية والشوفانيات العرقية، بل إلى ربط الإنسان بالطبيعة بعدما كان ينظر إلى نفسه ككائن فوق الطبيعة. إنها فلسفة حياتية ونظرة انفتاحية تسامحية تقر مبدأ النسبية الثقافية وتشرع الأبواب نحو تقبّل الآخر والحوار السلمي مع الاقرار بالحق في الاختلاف. إنها تمثل روح العصر الحديث التي تنبذ الخطاب المنغلق على نفسه والمتمترس خلف تحيزاته وتخلفه وجهله. بفضل النتائج التي تمخضت عنها الأبحاث الأنثروبولوجية تبين أن الاختلافات بين الأمم والشعوب والتغيرات الاجتماعية والثقافية ليست أمورا مقلقلة تبعث على الخوف والتوجس مما يلزم معه تحويل النظرة لها من رفض وإدانة إلى محاولة لتفسيرها وتقبلها كأمور طبيعية ومحاولة اكتشاف آلياتها والتعامل معها بعلمانية وعقلانية.

الأنثروبولوجيا هي الأداة التي تزيح الغشاوة عن العقول والأقنعة عن الوجوه حتى نستطيع التعرف على أنفسنا كما نحن حقيقة، لا كما نتمى أن نكون، ونستطيع معرفة الآخر كما هو حقيقة لا كما نتصوره أو نريد له أن يكون. هكذا نفهم أنفسنا ونتقبل الآخر. إننا على عتبة الدخول إلى عصر حوار الحضارات الذي قدم الفكر الأنثروبولوجي مساهمة فعالة في تشكيله وتوجيهه.

ملاحظات حول المراجع والإحالات

اعتمدت الطريقة الأنثروبولوجية في الإحالات والتي تقوم على تدكيكها داخل النص بدلا من وضعها في حواشي وهوامش، نظرا لأن هذه طريقة سهلة وعملية. يتم إيراد المصدر، أو المصادر إن كانت أكثر من واحد، بين قوسين ويورد المصدر تحت الاسم الأخير للمؤلف وسنة النشر دون ذكر العنوان؛ يلي ذلك نقطتين مترادفتين هكذا : تفصلان بين السنة وبين الصفحات. وتورد الصفحات إذا كانت متتالية ابتداء من أول صفحة تتم الإحالة لها حتى آخر صفحة ويفصل بينهما شرطة كما في هذا المثال (سالم ١٩٩٩: ٥–٧) وهذه الإحالة تشير إلى كتاب ألفه كاتب اسمه الأخير سالم وسنة النشر ١٩٩٩ والصفحات المُحال إليها تبدأ من صفحة ٥ وتنتهي بصفحة ٧. وعادة لا نورد إلا آخر رقم في الصفحة الأخيرة؛ ففي المثال (سالم ١٩٩٩: ٢٢–٩) تشير الإحالة إلى أن الصفحات المُحال إليها تبدأ من صفحة ٢٢ وتنتهي بصفحة ٢٩؛ وفي المثال (سالم ١٩٩٩: ٢١٠–١) تشير الإحالة إلى أن الصفحات المُحال إليها تبدأ من صفحة ٢١٠ وتنتهي بصفحة ٢١١. وإذا كانت الإحالة إلى صفحات غير متتالية في نفس الكتاب يوضع بينها فواصل هكذا (سالم ١٩٩٩: ٢٠٠–٣، ١١، ١٩، ١٢٧–٩)، أي من صفحة ٢٠٠ إلى ٢٠٣ مضافا إليها صفحة ١١ وصفحة ١٩ وكذلك من صفحة ١٢٧ إلى ١٢٩. وحينما يتضمن التقويس أكثر من مرجع، سواء كانت المراجع المذكورة لنفس المؤلف أو لمؤلفين آخرين، وضعنا بينها فاصلة تحتها نقطة هكذا ؛ كما في هذا المثال (سالم ١٩٩٩: ٥–٧، ١١،

١٩، ٢٢–٩؛ ٢٠٠١: ٩٨؛ غانم ١٩٨٥: ٩) ففي هذا المثال أحلنا إلى عدد من الصفحات لمرجعين من تأليف سالم أحدهما نشر عام ١٩٩٩ والآخر نشر عام ٢٠٠١ ومرجع ثالث لغانم نشر عام ١٩٨٥. وإذا رجعنا إلى مصدرين لنفس المؤلف نُشرا في نفس السنة فرقنا بينها بإضافة حروف أبجدية إلى سنوات النشر هكذا: 1995a, 1995b, 1995c. وإذا كان المرجع عبارة عن مقالة قصيرة كلها ذات صلة بالقضية المطروحة فلا يُذكر رقم الصفحات وإنما يُكتفى بإيراد اسم المؤلف وسنة النشر.

وحرصت على أن أكتب المصطلحات الأساسية التي لم تُسك لها مقابلات عربية مناسبة ومتفق عليها، وكذلك الأسماء الأجنبية التي لها إسهامات أساسية بتهجئاتها بالحروف اللاتينية، خصوصا عند ورودها لأول مرة، وغالبا ما أورد بين قوسين سنة الميلاد وسنة الوفاة إذا كان الاسم من غير المعاصرين ليستطيع القارئ تقييم إسهاماته في إطار العصر الذي عاش فيه وليستطع أيضا تتبع نمو الأفكار وتحوّرها عبر العقود والعصور. كما حرصت على تشكيل أي كلمة قد يلتبس على القارئ نطقها فالتشكيل جزء مهم من لغتنا يساعد على النطق الصحيح والفهم السليم، والكثير من الكتاب يهمله مع شديد الأسف.

وفي قائمة المراجع ترد بعض الاختصارات، فالاختصار .ed يشير إلى المحرر editor والاختصار .trans يشير إلى المترجم translator والاختصار .U يعني جامعة University.

أما بالنسبة للدوريات فإن الرقم الذي يتبع عنوان الدورية periodical مباشرة يشير إلى المجلد volume والرقم المقوس الذي يلي رقم المجلد يشير إلى رقم العدد number.